7

سفينة الأصدقاء

مع الأسد

في كينيا

تأليف : سامي البجيرمي

رسوم : محمد فايد

دار الرشاد

سَألَ مُحَمَّدٌ : « أينَ نَحْنُ ؟ » .

رَدَّ الأسَـــدُ : « نَحنُ فى كِينْيَا ، وَهِى واقعةٌ فى شَرقِ إفْرِيقيَا » .

قَالَ مُحَمَّدٌ : « وهَلْ هذا وَطَنُكَ الَّذِى أنتَ فِيهِ مَلِكُ الحَيواناتِ ؟ » .

ردَّ الأسَـدُ : « أنا مَلِكُ الحَيواناتِ حَيثُما أكونُ » .

قَالَ الأسَدُ ذَلكَ ، ورَفعَ رأسَهُ الجَمِيلَ إلى أعْلَى ، وبَدَا وكأنَّه مَلِكٌ حقيقةً ، ولَقَدْ كانَ سُرورُ الأسَدِ عَظِيماً بِرُجُوعِهِ إلى وطنِهِ .

ووجدَ مُحَمَّدٌ نَفْسَه فى فَضاءٍ مُغطًّى بالحشَائشِ العَاليةِ فيهِ أشجارٌ قليلةٌ هنا وهُناكَ ، لا يَزِيدُ ارْتِفَاعُها عن طُولِ الرَّجُلِ ، ويَختبئُ فِيها كَثيرٌ من أنواعِ الحَيواناتِ التى تَعيشُ على الحشَائشِ كالغَزالِ والحِمَارِ الوَحْشِىِّ ،

ولَمْ يَكُنْ رأسُ مُحَمَّدٍ ظاهِراً مِنْ فَوقِ الحَشائش ليَرَى تِلْكَ الحَيواناتِ ، إلاَّ أنَّ زرافةً أطلَّتْ عَليهِ مِنْ عَلٍ ثُمَّ أطْلَقَتْ ساقَيْها للرِّيحِ ، وصارتْ تَنتقلُ مِنْ شَجَرة لأُخْرى لتأكُلَ أوراقَها .

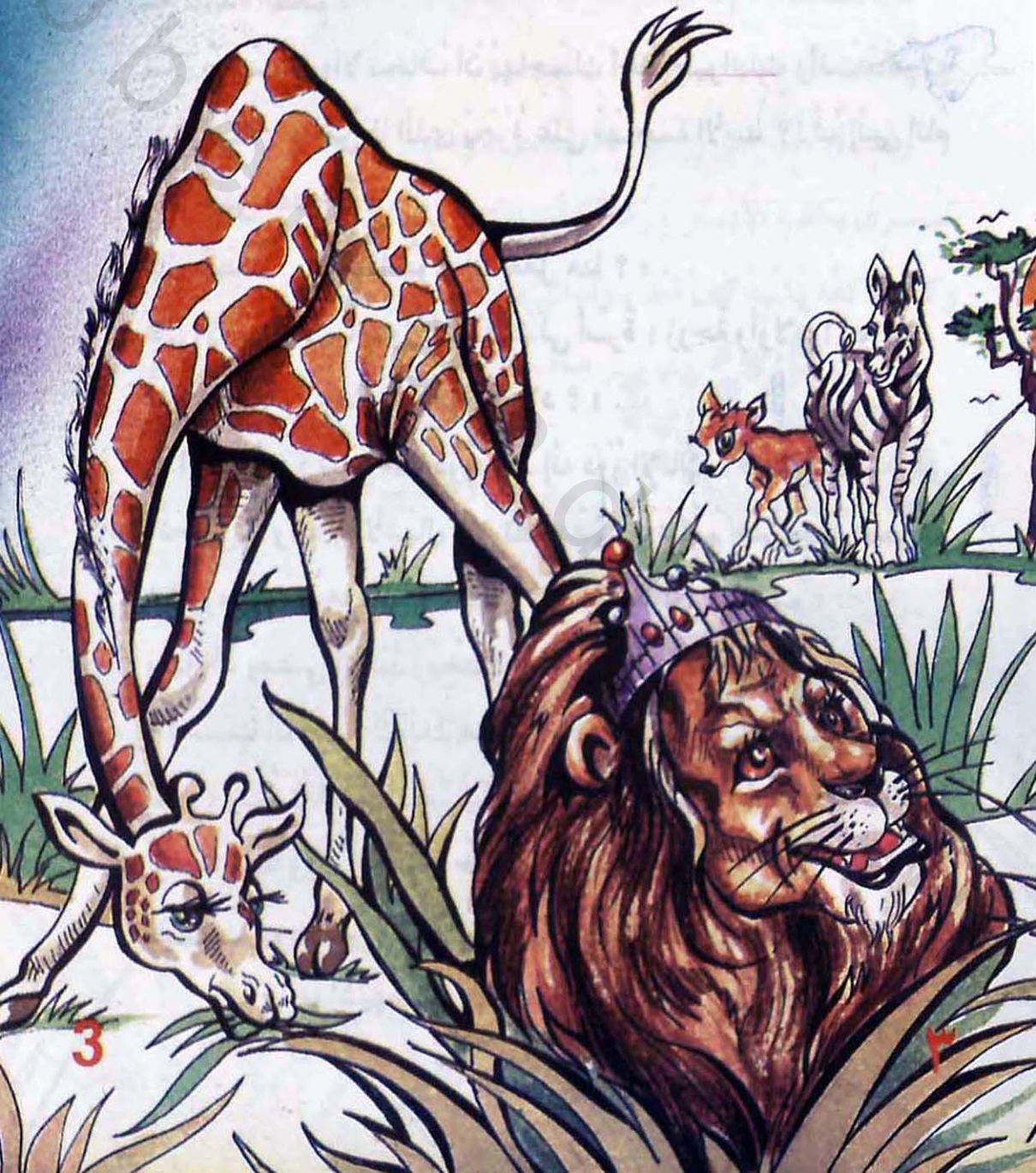

وهُنا قالَ الأسدُ لمحمَّد : « والآنَ .. وَدَاعاً يا صَديقى !! » .

سَألَ مُحَمَّدٌ : « وكَيفَ ستعيشُ هُنا ؟ » .

رَدَّ الأسَدُ : « أنسيتَ أنَّها مَملكَتى ... سأقْضِى نَهَارى فى الرَّاحةِ فى ظِلِّ الأشْجارِ ككُلِّ الأسُودِ .. وفى المسَاءِ ، أبدأُ العَملَ ، للبحثِ عن فَريسةٍ لَذيذةِ الطَّعْمِ » .

سَألَ مُحَمَّدٌ : «ألا تَخافُ أنْ يُهاجِمَكَ أحدُ الحَيواناتِ وأنتَ نائمٌ؟»

رَدَّ الأسَدُ : « ومَنْ ذا الَّذى يَجْرُؤُ على مُهَاجَمةِ الأسدِ ؟! ثُمَّ إنَّنى أنامُ وإحْدَى عَينىَّ مَفتوحةٌ » .

قَالَ مُحَمَّدٌ : « ومَاذا تَنْوِى أنْ تَفْعَلَ هُنَا ؟ » .

قَالَ الأسَدُ : « سأحاولُ أنْ تَكُونَ لى أُسْرةٌ ؛ زوجةٌ وأولادٌ !! » .

قَالَ مُحَمَّدٌ : « وهَلْ ستَهْتَمُّ بالأولاد ؟ » .

رَدَّ الأسَدُ : « لَيْسَ هَذا دَوْرِى .. إنَّه دَوْرُ الإناث ، فَأُنْثَى الأسَدِ هِىَ الَّتى تَحْمى الأوْلاَدَ (الأشْبَالَ) و تُطْعِمُهُمْ وترْعَاهُمْ حتَّى يَصِلَ عُمْرُهم (١٨٠ يوماً) ، بَعْدَها يَكونُ عَليهم أنْ يَعتَمِدوا علَى أنْفُسِهِمْ » .

وقَبلَ أنْ يَمضِى الأسَدُ ويَختفى وَسطَ الحشَائشِ ، قَالَ :

« نَسِيتُ أنْ أُخبِرَكَ أنَّكَ هنا فى مكانٍ تَعيشُ فيه قَبائلُ تُسمَّى «المسَاى» ولَسْتُ أعْلَمُ ما سَيكونُ غِذَاؤكَ بَيْنَهُمْ ؛ فإنَّ هؤلاءِ القَومِ لا يَزرعونَ شَيئاً وليسَ عندَهُم خُبْزٌ أو فَاكِهةٌ أو خُضَر .

فَهُمْ يَشْرَبونَ اللبنَ والدَّمَ ، ويَأكُلونَ اللحْمَ الذى يَحْصُلون عَليهِ مِنْ مَواشِيهم التى لا حَصْرَ لهَا .

وكنتُ أظنُّ أنَّهم لا يَحْقِدون عليَّ إذا أَخَذْتُ واحدةً أو اثنتينِ منهـا لأتَغَذَّى بِهَـا كُلَّمَا شَعَرتُ بالجُوعِ .. ولكنَّ الغَريبَ أنَّهم يَغْضَبونَ لِذَلكَ أشَدَّ الغَضَبِ ، ويَدفعُهم هَذا إلى مُحَاولةِ صَيدِى بالحِرابِ ».

قَالَ مُحَمَّدٌ : « إنَّه ليُحزِنُنى يا صَدِيقى أنْ يَمَسَّكَ سُوءٌ ؛ ولذَلكَ أَسْتَودِعُكَ اللهَ !! »

وَقَفَ الأسَدُ على رِجْلَيهِ الخَلفيَّتينِ ، ومَسَحَ دَمْعَةً نَزَلَتْ مِنْ عَينِهِ اليُسْرَى بكَفِّه الأيْسَر ، ومَدَّ كَفَّه الأيمنَ ، ليُسَلِّمَ على «مُحَمَّد» ، وكانتْ كَفُّه تُشْبِهُ كَفَّ قِطٍّ ، وأدخلَ مَخَالِبَهُ حتَّى لا يَخْدِشَ يَدَ صَدِيقه مُحَمَّدٍ الذى أَرْجَعَهُ إلَى وَطَنه ، ثم قَفَزَ فَوْقَ الحشَائشِ واخْتَفَى بَيْنَ الأشْجَارِ والأعْشَابِ التى كانَ لَوْنُها يُشَابِهُ لَوْنَه كَثيراً .

أمَّا مُحَمَّدٌ ، فإنَّه واصَلَ سَيْرَهُ بَيْنَ الحشائشِ إلى أنْ وَصَلَ إلى قَريةٍ ، حَوْلَها سُورٌ عالٍ من الأشْجارِ ذاتِ الشَّوْكِ ؛ لِتَمْنَعَ الوُحُوشَ من الوُصولِ إليها ليلاً ..

اقْتَحَمَ مُحَمَّدٌ السُّورَ إلى الدَّاخِلِ ، فَغاصَتْ قَدَماهُ فى الطِّين ، ولَمْ تَكُن المنْطقَةُ الفَضاءُ الواقِعةُ داخِلَ السُّورِ سِوَى حَظيرةِ المواشِي .

وفى وَسَطِ ذَلِكَ المكَانِ ، كانَتْ حَلْقَةٌ مِنَ الأكْواخِ ، لا تَزِيدُ فى ارْتِفاعِها عنْ « مِتْرٍ واحدٍ » وَهِى مَصْنوعةٌ مِنَ (العِصِىِّ) وفَوْقَها طَبَقَةٌ مِنَ الطِّينِ ..

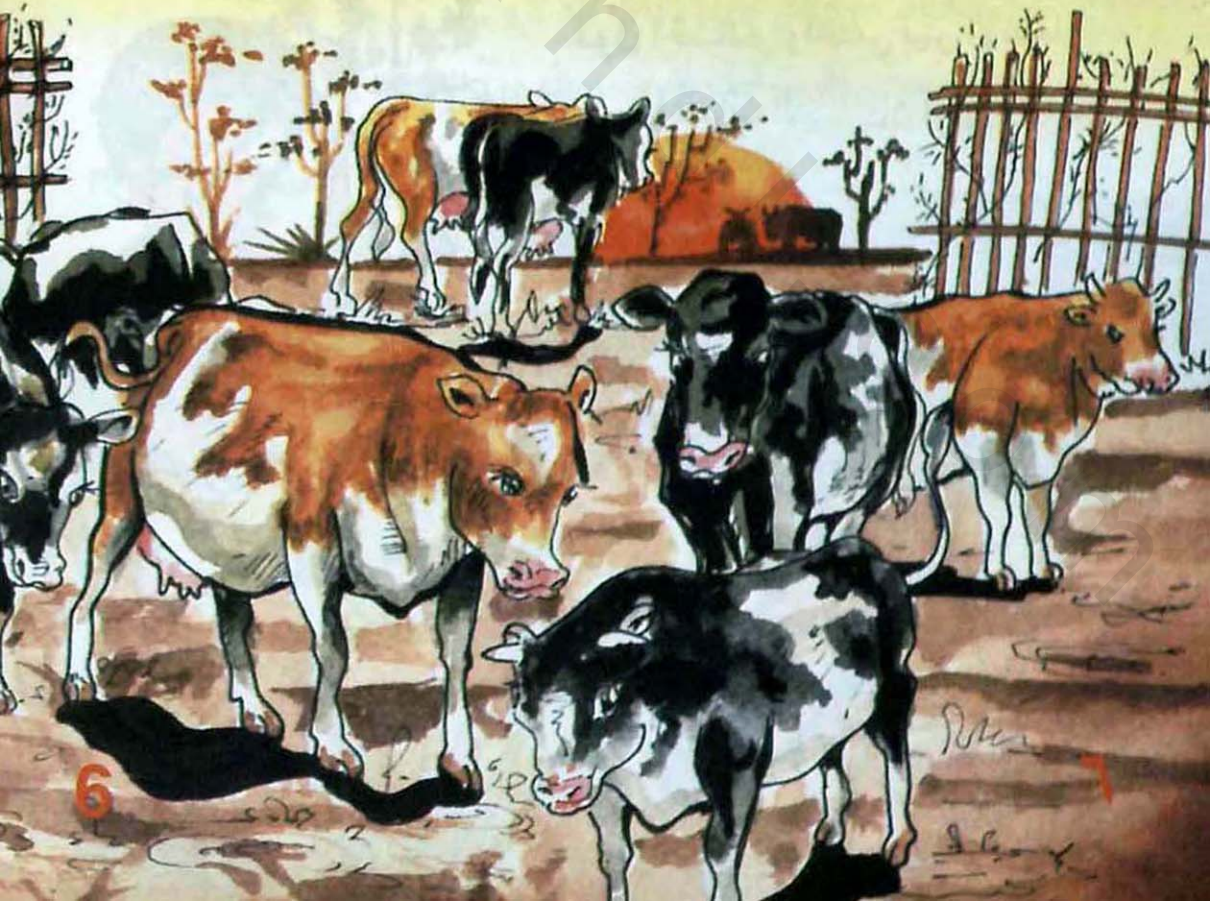

وتقدَّم مُحَمَّدٌ ليَدْخُلَ أحَدَ الأكْواخِ ، فَوَجَدَ البَابَ مُنْخَفِضاً ، حتَّى إنَّه اضْطُرَّ لأنْ يَزْحَفَ كَي يَتمكَّن من الدُّخُول ..

وكانَ الكُوخُ مُظْلِماً لعَدَمِ وجُودِ نَوافذَ فى الحَوائطِ ، وإنَّما كانَ يَدْخُلُهُ الضَّوءُ مِنْ خِلالِ البَابِ ومِنْ ثُقوبٍ قَليلةٍ فى السَّقفِ والجُدرانِ .. وعلى ذَلكَ الضَّوءِ الضَّعيفِ رأى مُحَمَّدٌ فِراشاً مِن الحشَائشِ وبضْعَةَ أطْبَاقٍ مِنَ الحَديدِ وأُخْرَى منَ الفَخَّار .

وفى وَسَطِ الكُوخِ « مَوْقِدٌ » للنَّارِ مُكوَّنٌ مِنْ كَوْمةٍ مِنَ الأحْجَارِ ، ولَمْ يَكُنِ الكُوخُ نَظِيفاً ، ولَمْ يَسْتَطِعْ مُحَمَّدٌ الصَّبْرَ على ذَلكَ فَخَرجَ مُسْرِعاً .

ولما عبر باب السور ، وجد فى الجانب الآخر بعض الأولاد من قبيلة « المساى » يلعبون ، فاشترك معهم كعادته ، وبدأوا اللعب بحراب صغيرة متظاهرين بأنهم يصطادون الأسد ، ثم صنعوا قرية من الرمال ووضعوا بداخلها (حصى) لتقوم مقام المواشى ، وأخيراً وجدوا بقرة عجوزاً وديعة ، فقالوا :

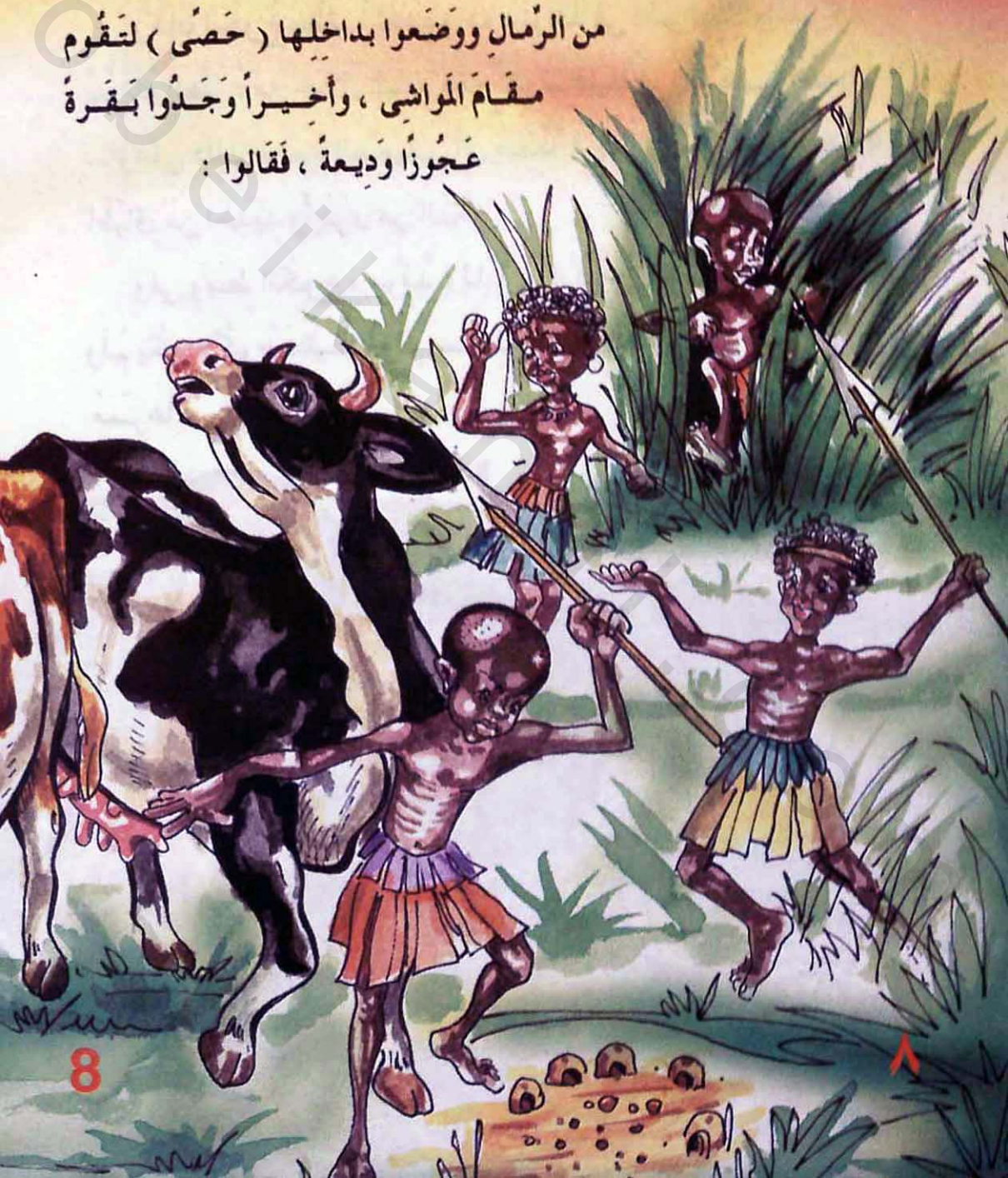

« لِتَكُنْ هَذِه البَقَرةُ كُوخاً » .

ووقَفَ أحدُ الأطْفَالِ بجَانِبِها ، بَيْنَمَا اخْتَبأَ الآخَرونَ فى الأعْشَاب.. وبَعْدَ قَليلٍ خَرَجُوا منَ الأعْشَابِ زَاحِفينَ كأنَّهم أعْداءٌ يُريدونَ الاسْتِيلاءَ على الكُوخ ؛ وكانَ على الولدِ الواقفِ بجَانبِ (البَقَرةِ) أنْ يُدَافِعَ عن (الكُوخِ) ، ويَمنعَ الآخَرينَ منَ الاقْتِرَابِ .. وبَيْنَمَا هُمْ يَلْعَبُونَ كذَلِكَ تَحرَّكَتِ البَقَرةُ ؛ فَصَاحَ مُحَمَّدٌ :

« هَذا كُوخٌ مُضْحِكٌ !! إنَّه يَتَحرَّكُ ويَبْتَعِدُ عنَّا !!» .

رَدَّ عليه أحدُ الأولادِ :

« نَعَمْ ، وأكْواخُنا أيضاً تتحَرَّكُ مِثْلَ هذا الكُوخِ تَماماً ؛ لأنَّنا لا نعيشُ طَويلاً فى مكانٍ واحِدٍ ، بَلْ نَحنُ مُضْطَرُّونَ للرَّحِيلِ عندما تَكُونُ المَواشِى قَد اسْتَهلكتْ كُلَّ ما حَوْلَنا مِنَ الحشَائشِ ، وبما أنَّنا حَريصونَ على مَواشِينا ، فَكُلَّما أكَلَتْ هذه المَواشِى الحشَائشَ الموجُودةَ حَوْلَنا نَهْدمُ أكْواخَنا ، ونَرْحَلُ بِهَا ، ثُمَّ نَبْنِى أكْواخاً أُخْرى فى مَكانٍ تُوجَدُ بِهِ الحشَائشُ .

قَالَ مُحَمَّدٌ :« لا شَكَّ أنَّ والِدَكُم يَتْعَبُ كَثيراً ، إذا كانَ عليهِ أن يَبْنِى مَنْزِلاً جَديداً مَرَّتينِ أو ثَلاثَ مَرَّاتٍ كُلَّ عامٍ ! ! »

ضَحِكَ الأطْفَالُ ، وصَاحوا : « والِدُنا ؟ إنَّ والدَنا لا يَبْنِى مَنازِلَ ، بَلْ أُمُّنَا هِى التى تَقومُ بذلكَ .

على أنَّ بناءَ المنزلِ لَيْسَ شاقًّا ، كَمَا تتوهَّم ؛ فإنَّ أُمَّنَا تحفرُ فى الأرضِ حُفْرَةً مُستديرةً ، ثُمَّ تُثبِّتُ بَعْضَ القوائمِ على حَافةِ الحفرةِ ، ثُمَّ تربطُ هذه القوائمَ بعضَها ببعضٍ ، وبعدَ ذلكَ تُغطِّيها بالحشائشِ ، ثُمَّ تُغطِّى كُلَّ ذلكَ بالطِّين » . ثُمَّ عادَ الأطْفَالُ يَقُولونَ :

« ما أغْرَبَ أفْكَارَكَ !! والِدُنا يَبْنِى بَيْتًا !! » .

سَألَ مُحَمَّدٌ : « ألاَ يَعْمَل شَيئًا مُطْلقًا إذَنْ ؟ » .

أجَابَهُ الأطْفَالُ : « إنَّه يَهْتَمُّ بشُئُونِ الماشِيَةِ ، ويَقِفُ هُنا وهُناكَ ، ويَتكلَّم !! أو يتوكَّأُ على حَرْبَتِه ، ويَتكلَّم !! ويَصيدُ أَيْضاً ، وهُو صَيَّادٌ ماهِرٌ ، ويَستطيعُ أنْ يُواجِهَ أسَدًا فى الغَابةِ ، وليسَ فى يده إلاَّ حربَتُهُ !؟ » .

عِنْدَ ذَلكَ مَرَّ بالأطْفَالِ رَجُلٌ طَويلُ القَامةِ قَوىُّ الجِسْمِ ؛ فَصَاحُوا : « يا أبى !! يا أبى !! هُنا وَلَدٌ غَريبٌ يُريدُ أنْ يتعرَّفَ عَليكَ ويَرى حَرْبَتَكَ !! » .

كانَ شَعْرُ الرَّجُل خَشِنًا ، وعلَيه دُهْنٌ وطِينٌ ، وكُلُّ ما عَليه من الملابسِ لا يَزيدُ عن « مِتْرٍ » من النَّسيجِ القُطْنِىِّ الأبيضِ ، وحَوْلَ وَسَطِه حِزامٌ مُعلَّق به سِكِّينٌ طويلٌ ، وكانَ يَحملُ فى يدِه اليُسْرَى درْعاً مِنَ الجِلْدِ يَزيدُ ارتفاعُه عنْ (مِتْرٍ) ..

أمّا يَدُه اليُمْنَى فكان يَحْمِلُ فيها حَرْبَته التى يَصْطادُ بها ويَبْلُغ طُولُ (سِنِّها) مِتْراً تقريبًا .

أرادَ الوَالِدُ أنْ يُدْخِلَ السُّرورَ إلى قَلْبِ مُحَمَّدٍ ، فهَزَّ حَرْبَتَهُ والدِّرْعَ فى الهَواءِ وَصَرَخَ صَرْخَةً مُفْزِعَةً ، اضْطَرِبَ مِنْ هَوْلِها (مُحَمَّدٌ) المِسْكينُ !! وتَراجعَ إلى الوراءِ فتَعثَّرتْ قَدمُه فى حَجَرٍ ، واصْطَدمَ بإحْدَى النِّساءِ ، وكانتْ راجِعةً إلى الكُوخِ ، تَحمِلُ بعضَ الأخْشَابِ .

ولما رَأتْه يَسْقطُ على الأرضِ ، رَمَتِ الأخْشَابَ ، وسَاعَدَتْهُ على النُّهوضِ ، ولما تَأمَّلَها مُحَمَّدٌ لاحظَ أنَّ شَعْرَها مَحْلوقٌ (بالمُوسِىِّ) .

ولقدْ رأى مُحَمَّدٌ أهْلَ بلادِ الإسْكِيمو فى مَلابِسَ مِنْ جُلودِ عِجْلِ البَحْرِ، والعَرَبَ فى عَبَاءاتِ القُطْنِ ، وزُنوج أُسْتُراليا وهُمْ يَسيرونَ عُرَاةً .. ولكنَّه لم يَرَ أطْرَفَ من مَلابِسِ نِسَاءِ كِينْيَا ، إذا صَحَّ أنْ تُسَمَّى مَلابس !! فقدْ كانَتِ المرأةُ تَلْبَسُ (أسْلاكًا) حَوْلَ ذِراعَيها وسَاقَيها وحتَّى حَوْلَ عُنُقِها ، وكانَ يَتدلَّى مِنْ بعضِ الأسْلاكِ سَلاسلُ مِنَ المعْدِن، ولم تَكُنْ تَلْبَسُ غَيْرَ الأسْلاكِ شَيئًا سِوَى قَميصٍ صَغيرٍ من الجِلْدِ ، وهى لا تَخْلَعُ هَذِهِ الأسْلاكَ ـ أبدًا ـ حَتَّى عندَ النَّومِ .

وَبَعْدَ قليلٍ رَأى مُحَمَّدٌ مِئَاتٍ مِنَ المَواشِي تَنْدَفِعُ نَحْوَبابِ السُّورِ ، وَهِي تَصِيحُ ، وتَهُزُّ ذُيولَها ، فانْشَغَلَ بِها الجَمِيعُ ، وعِنْدَئِذٍ انْتَهَزَ مُحَمَّدٌ هَذِهِ الفُرْصَةَ وهَرَبَ عائِداً إلى السَّفِينَةِ .

ولَمَّا وَصَلَ إليها رَأى الحَيواناتِ الباقِيَةَ فِيها ، فقَالَ لَهُم :

« لَنْ يَتيسَّرَ سَحْبُ القُرعَةِ هَذه المرَّة ؛ لأنَّني فَقَدتُ الورقَ والأقْلامَ وأنا أَهْرُبُ مِنْ إحْدى قُرى « المسَاى » .. ولما كَانَ طَعامُنا قَدْ أوشَكَ على النِّهايةِ فَعِنْدى فِكْرةٌ تُخْرِجُنا مِنْ هَذا المأزِقِ وهى أنْ نَذْهَبَ بالفِيلِ أوَّلاً إلى وَطنِهِ ، لأنَّه أكْثَرُنا أكْلاً » .

سَعِدَ الفِيلُ بذَلِكَ ، وهَزَّ خُرطُومَه فى الهواءِ ، وصَاحَ : « هذا شَىءٌ جَميلٌ جِدًّا !! اذْهَبُوا إذَنْ ونَامُوا ، وسَأقُود السَّفينةَ بنَفْسِى !! » .. فَحَيَّاهم مُحَمَّدٌ وذَهَبَ إلى غُرفتِهِ ، ولَمْ يَسْتَيقِظْ إلا علَى صَوتِ الفِيلِ ، وهُو يَطْرُقُ البَابَ ، ويقول : « لَقَدْ وَصَلْنَا !! » .

الناشـــر : دار الرشـاد
العنـــوان : ١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة
تليفـــون : ٣٩٣٤٦٠٥
رقم الإيداع : ٩٨ / ٨٢٨٣
الترقيم الدولى : 977 - 5324 - 69 - 6
الطبـــع : عربية للطباعة والنشر
العنـــوان : ٧ ، ١٠ ش السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفـــون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣
الجمـــع : آرمس
العنـــوان : ٣٢ شارع على عبد اللطيف ـ مجلس الأمة
تليفـــون : ٣٥٦٤٤٠٤

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م

obeikandl.com